الصراع على التجديد
في الأحزاب الشيوعية

من كتاب:
كريم مروة يتذكر في ما يشبه السيرة

ـ قبل الانهيار السوفياتي، اندلع النقاش حول ضرورة تجديد الماركسية. وطاول مفاهيم ماركسية أساسية مثل مفهوم الطبقة العاملة، وصولاً إلى اعتبار بعض المفكرين والمثقفين في أوروبا ان الأقليات والمهمشين هم الذين سيقودون الثورة وليس الطبقة العاملة. ما هي الأفكار التي تكوّنت عندك في هذا النقاش؟ وهل لا تزال الماركسية صالحة كنظرية للتغيير؟

● لا شك في أهمية هذا الجدل، وفي اهمية الاستمرار فيه. ولكن بعض الإستنتاجات التي توصل اليها بعض المفكرين كان مبالغاً فيها، مثل مقولة إحلال المهمشين مكان الطبقة العاملة لقيادة حركة التغيير. فليس صحيحاً أن بامكان هؤلاء المهمشين، الذين وضعوا انفسهم أو وضعتهم الازمات الاقتصادية في بلدانهم على هامش عملية الانتاج، أن يكونوا في مواقع قيادة هذه الثورة. فقد دلت الأحداث انهم كانوا دائماً ملتحقين أما بقوى الثورة للتغيير واما بالقوى المعادية للثورة. والعامل المقرر في وجودهم هنا أو هناك هو نسبة القوى داخل حركة التغيير، وبين هذه الحركة والقوى المحافظة والرجعية. وهو ما تحدده الشروط التاريخية الخاصة بالمرحلة المعنية في البلد المعين. واشير، هنا، إلى جهد نظري قمنا به في حزبنا، صدر في وثيقة المؤتمر السادس (١٩٩٢) يتعلق بفهمنا للماركسية، من جهة، وبالمفهوم المعاصر للطبقة العاملة، من جهة ثانية.

إلا أن ذلك لا يمنعني من التأكيد على أن الأحزاب الشيوعية أخطأت في مراحل معينة من تاريخ نضالها، قديماً وحديثاً، وفي نسب متفاوتة بين حزب

وآخر، في نقل الفكر الماركسي إلى الواقع العربي نقلاً ميكانيكياً، من غير ان تبذل جهداً ابداعياً كافياً لايجاد علاقة صحيحة بين هذا الفكر وبين الواقع الموضوعي لبلداننا. وهذه المشكلة وقعت فيها معظم الأحزاب الشيوعية في العالم، أيضاً، بنسب متفاوتة. وقد اسهم في ذلك وجود مركز عالمي كان يحتكر انتاج وتصدير الأفكار الاشتراكية، هو الاتحاد السوفياتي. الا ان مسؤولية هذه الأحزاب عن الخلل تبقى هي الاساس. واذا عدنا إلى التاريخ القديم سنجد ان اساس المشكلة هو في الدور الذي قامت به الأممية الشيوعية، في اعقاب انتصار ثورة اوكتوبر، في رعاية تشكيل الأحزاب الشيوعية، التي لم يكن تشكيلها، في كثير من الحالات، تتطابق مع ظروف البلدان المعنية، بقدر ما كان يتطابق مع الشروط العامة التي وضعتها الأممية لتشكيل هذه الأحزاب ولانتسابها إلى الأممية. وهذه الشروط هي واحد وعشرون شرطاً. إلا أن علينا أن نكون دقيقين في تقييمنا للأحداث ولتطوراتها، وألا نتعسف. فإذ نشير إلى السلبيات التي رافقت تشكيل الأممية الشيوعية ونشاطها، فمن غير الجائز أن نغفل أهمية الدور التاريخي الذي لعبته هذه الأممية في تعظيم جيش الشيوعيين في العالم. إلا أن هذا الدور للأممية لم يكن هو الدور المطلوب ذاته، في كل المراحل. إذ مورست أشكال فظة من التدخل، استمرت طويلاً حتى بعد حل هذه الأممية، بأشكالها وصيغها المختلفة. وقد جرى حل الكومنترن خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٤٣)، واستبدل، بعد الحرب، بالكومنفورم، المركز الاعلامي الأممي. ثم حل هذا الأخير في أواسط الخمسينات، في عهد خروشوف، في أعقاب المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي (١٩٥٦). إلا أن أجهزة الحزب السوفياتي، التي كانت تتحكم بمؤسسات الدولة السوفياتية، سرعان ما حلت محل هذه الأممية، بصيغها السابقة. وصار للتدخل المباشر في شؤون الأحزاب معنى آخر، لا علاقة له بتطور الحركة الثورية بقدر ما صار يعبر عن مصالح الدولة السوفياتية تحديداً. وأضحت الأحزاب، بفعل هذا الارتباط القديم والجديد، تتلقى الأوامر والتوجيهات من هذا المركز. ومن كان يعترض كان يعاقب. وما اكثر الذين عوقبوا، ومنهم نحن. أما الأحزاب التي انتزعت حرية الاجتهاد فهي الأحزاب الأوروبية التاريخية، أو بعضها، إذا

توخينا الدقة. بينما الأحزاب في البلدان الصغيرة لم تكن لديها القدرة على الاعتراض والتمايز. وعندما بادر الحزب الشيوعي السوري اللبناني، بعد تأسيسه في عام ١٩٢٤، إلى اتخاذ اسم "حزب الشعب" في عام ١٩٢٥، كصيغة أفضل للتغلغل في وسط الجماهير، اعترض ممثل الأممية الشيوعية على ذلك. وعندما طرح فؤاد الشمالي الموضوع على مؤتمر الكومنترن الذي عقد في عام ١٩٢٨، طلب منه الاستمرار في اعتماد اسم الحزب الشيوعي. إذ كان الشعار العام لهذا المؤتمر: طبقة ضد طبقة، أي أن على الطبقة العاملة وأحزابها أن تكون صافية في مواجهتها للطبقة البرجوازية.

أردت من إيراد هذه الأمثلة أن أقول انه كان صعباً على أحزابنا ممارسة الإجتهاد، ومحاولة تعريب الفكر الماركسي، بمعنى الاقتراب من الشروط الموضوعية لتطور مجتمعاتنا. وانسحب ذلك على القضايا كلها، بما فيها المقولات والمفاهيم. غير أن الاجتهاد لا يعني الغاء الأساس الموضوعي للمقولات. فلا ينبغي، مثلاً، التخلي عن دور الطبقة العاملة في تحقيق التحول الثوري. لكن المهم، بالمقابل، هو الاجتهاد في تحديد المفهوم المعاصر للطبقة العاملة، على صعيد كل بلد، وعلى الصعيد العالمي، وفي تحديد الدور الحقيقي الذي يعود لهذه الطبقة في شروط تكونها وتطورها. كما ينبغي الجواب عن السؤال الآتي: هل هذه الطبقة العاملة، في صيغتها الجديدة، تركيباً وحجماً، هي وحدها القادرة على احداث التغيير، أم ان هناك فئات إجتماعية أخرى لها مصلحة في هذا التغيير؟ ما هو دور الفلاحين والعمال الزراعيين؟ ما هو دور الأجراء بكل فئاتهم؟ ما هو دور الحرفيين والفئات المتوسطة ؟ ما هو دور الزعماء السياسيين والديمقراطيين وما هو دور المثقفين؟ ما هو دور الشباب، في مراحل دراستهم، لا سيما الجامعية منها، بتعدد انتماءاتهم الاجتماعية؟ تضاف إلى هذه الأسئلة أسئلة تتعلق بتحديد المهمات التاريخية في كل مرحلة من المراحل. فالاشتراكية لا تعني، بالضرورة، مصادرة الملكية الخاصة بشكل مطلق، ولا تعني التأميم في كل الظروف. فالملكية وظيفة موضوعية تحددها شروط كل مرحلة من مراحل التطور التاريخي في كل بلد.

ومفهوم الملكية يتغير دائماً، حتى في ظل الرأسمالية. ومن المهم، أيضاً، في هذا السياق، تحديد مراحل الانتقال، وهي عديدة في أشكالها وصيغها، وتحديد الأدوات التي تقود إلى بناء القاعدة المادية للاشتراكية. وهذه الأمور لا يمكن تحديد طبيعتها ونوعها وقوانينها واتجاهاتها التاريخية الا عندما تكتمل شروط بناء هذه القاعدة المادية. وغني عن البيان ان ذلك يتطلب الأخذ في الاعتبار دائماً، في كل مرحلة من هذه المراحل، مستوى تطور الوعي لدى الافراد والجماعات، ومستوى تطور العلاقات الموضوعية التي تربطهم بالمفاهيم وبالقيم الجديدة. فإذا كان لينين وجد روسيا، بعد انتصار الثورة، غير مؤهلة لبناء الإشتراكية من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، واضطر إلى الاعلان عن البدء في تطبيق رأسمالية الدولة، فكيف الحال في البلدان المتخلفة أو التابعة، حيث لا يوحد اقتصاد حقيقي لديها ولا تطور اجتماعي يؤهلها لتحقيق الحد الأدنى من هذه المهمة؟ وبهذا المعنى يمكن القول إن العديد من الأحزاب الشيوعية، لدى نشأتها وحتى في بعض مراحل تطورها اللاحقة، وقعت اسيرة أوهام طفولية في تبني الشعارات العامة للاشتراكية، باسم الماركسية.

ـ لكن السؤال ما زال قائما، وكذلك الخلاف على مصطلح "الطبقة". ما هي الطبقة؟ أليس من الصعب القول بوجود طبقة عاملة بحرينية مثلا وعدد العمال البحرينيين لا يتجاوزون بضعة آلاف عامل، اي اقل من عمال مصنع واحد كبير في مصر؟

● كلمة طبقة تعني، هنا، فئة اجتماعية. وما يحدد المفهوم هو الحالة المحددة، في مرحلة تاريخية محددة. والتحديد ينطلق من أن هناك مؤسسة انتاجية، وهناك عمال يعملون فيها. فاذا كان عدد سكان البلد قليلا وعدد المؤسسات قليلا ايضا، فان عدد العمال سيكون قليلاً، بالطبع. وهذا لا يلغي العلاقة بين نمط الانتاج وقوى الانتاج وعلاقات الانتاج. لكن الأهم من ذلك كله هو السؤال التالي: هل هذه الطبقة مؤهلة للتغيير؟ هنا تكمن المسألة. وأنا أرى أن مقولة "الطبقة العاملة" تبقى صالحة، لكن تركيب هذه الطبقة ودورها

ووزنها وعلاقتها بالقوى الأخرى وبالمهمات المطروحة أمامها، ستظل محكومة بإجراء تعديلات عليها بصورة دائمة، ارتباطاً بحركة التطور في كل اتجاهاتها.

وبحسب ماركس فان الطبقة العاملة انما تكونت تاريخياً أثناء الانتقال من علاقات انتاج اقطاعية إلى علاقات انتاج رأسمالية. وجميع المجتمعات، بحسب مفهوم ماركس لتطور المجتمعات عبر التاريخ، هي مجتمعات طبقية. ليس الحجم هو الذي يحدد مفهوم الطبقة بل علاقات الانتاج. وفي مرحلة من مراحل تطور الطبقة العاملة تظهر البروليتاريا، أي عندما ينقطع العامل عن جذوره الفلاحية، ويتحول إلى العمل في مصنع تعود ملكيته إلى الرأسمالي، ويصبح هو، أي العامل، مالكاً لقوة عمله فقط. وهذا التطور ليس واضحاً كله في التاريخ القديم خصوصاً، بل حتى في التاريخ الحديث للبشرية. فلبلدان الشرق، وهي تشكل أكثرية العالم، شروط للتطور مختلفة عن أوروبا. وهو الأمر الذي حدا بماركس وانجلز إلى طرح السؤال الكبير حول نمط الانتاج وعلاقات الانتاج في هذه البلدان، وتركا الجواب عنه للأجيال اللاحقة، كقضية على جدول أعمال الحركة الاشتراكية، وحركة التاريخ بشكل عام.

ـ هناك موضوع نظري آخر يتعلق بمقولة "التطور اللارأسمالي" التي اعتمدها المركز السوفياتي وتبنتها أحزابكم. كيف تقرأ الآن هذه المقولة؟

● إن مصدر هذه المقولة هو قرارات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي (١٩٥٦) المتعلقة بتعدد طرق الانتقال إلى الاشتراكية، بشكل عام، والإفساح في المجال امام الاحزاب المختلفة كي تبتدع طرق انتقالها الخاصة بها إلى الاشتراكية. ومنذ ذلك الحين بدأت الأحزاب تبحث، بأشكال مختلفة، عن هذه الطرق الخاصة. وفي الستينات من القرن الماضي طرحت من قبل بعض الماركسيين والشيوعيين، وحتى من قبل الرئيس عبد الناصر، فكرة تأسيس اشتراكية عربية. وطرح البعض، ومنهم رياض الترك في سوريا، قبل ان ينفصل عن الحزب الشيوعي وبعد أن انفصل، فكرة تأسيس حزب شيوعي عربي. لكن

المسألة الأساسية المتعلقة بالانتقال إلى الاشتراكية ظلت قيد البحث والنقاش، ولا سيما في البلدان المتخلفة اقتصادياً واجتماعياً. اذ كيف تنتقل من نظام سابق على الرأسمالية إلى النظام الاشتراكي، اي من دون ان تكون قد توفرت القاعدة المادية لهذا الانتقال. من هنا انبثقت موضوعة التطور اللارأسمالي.

لقد اعتمد أصحاب هذه الموضوعة على ان الطبقة العاملة الظافرة، المتمثلة بالاتحاد السوفياتي وسائر البلدان الاشتراكية، يمكن ان تحل محل الطبقة العاملة غير الموجودة أو الضعيفة التطور في بعض البلدان، وحتى محل حزبها المفترض، أكان موجوداً أو غير موجود. ونقطة الانطلاق في هذه الموضوعة تبدأ من أن التحالف مع الاتحاد السوفياتي والمنظومة الإشتراكية هو الكفيل بأن يسمح لهذه البلدان بأن تتطور تطوراً غير رأسمالي، على طريق الاشتراكية، وكشكل من أشكال الانتقال اليها. وأستند البعض، في تدعيم هذه النظرية، إلى انجلز، الذي تحدث عن إمكان انتقال روسيا من مشاعية الأراضي ومن النظام الاقطاعي إلى الاشتراكية، من دون المرور بالرأسمالية. واستند إنجلز في قوله هذا على تعاظم الحركة الثورية في روسيا، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولم يكتف أصحاب هذه النظرية بما قاله إنجلز، بل هم استشهدوا بثورة أوكتوبر بالذات، التي قامت في بلد ضعيف في تطوره الرأسمالي، لم يقلل من ضعفه الجهد الذي بذله لينين لإثبات عكس ذلك، أو ما يشبهه، في كتابه المشهور "تطور الرأسمالية في روسيا".

وقد تلقف بعض المفكرين العرب هذه الموضوعة وراحوا يروجون أن جمال عبد الناصر وأحمد بن بيلا وأحمد سوكارنو ونهرو وسيكوتوري وموديبو كيتا وني ون وبندرنيكا، وحتى جعفر النميري، الذين اطلق عليهم اسم "الديمقراطيون الثوريون" يستطيعون، بالاستناد إلى تحالفهم مع الاتحاد السوفياتي، ان يقودوا عملية التطور اللارأسمالي، حتى من دون ان يكونوا شيوعيين، أو حتى اشتراكيين بالمعنى الواسع للمفهوم. الأمر الذي كان يقضي، وفق هذه الموضوعة، بضرورة تقديم الدعم لهؤلاء من قبل الشيوعيين في هذه

البلدان، بما في ذلك امكانية حل أحزابهم والانضمام إلى التنظيمات التي انشأها هؤلاء. وأدى ذلك إلى نشوء صراع داخل بعض الأحزاب الشيوعية، سواء تلك التي حلت نفسها أم تلك التي تبنت الفكرة من دون اللجوء إلى حل نفسها، أم تلك التي اعترضت على المقولة ورفضتها من أساسها. وإذا كان بعض الأحزاب الشيوعية قد قاوم هذه الفكرة فإن أحزاباً أخرى تبنتها بحماس. أما نحن في الحزب الشيوعي اللبناني فقد تعاملنا بإيجابية معها في بداية الأمر، لكن سرعان ما تراجعنا عن ذلك، لأننا أدركنا ان طبيعة الأنظمة التقدمية القائمة، وهي عسكرية وفردية وغير ديمقراطية، لا تستطيع ان تستمر في عملية التحرر والتنمية، التي كانت بدأتها، إلى نهاية هذه العملية. وهو ما أثبتته الأحداث. وتراجعنا، كذلك، عن تأييد الفكرة التي روّجت لدور الجيوش في احداث التغيير الثوري، الذي كان يروج له بعض المنظرين السوفيات بدعم من الحزب الشيوعي السوفياتي، في ما كان يتوافق مع السياسة الخارجية للدولة السوفياتية.

ـ لننتقل من النظري إلى الملموس قليلاً. بحسب معرفتك بالأحزاب الشيوعية العربية، ما كانت صورة الصراع على التجديد داخل هذه الأحزاب؟

● سأقول لك أولاً انني أعرف جميع الأحزاب الشيوعية العربية من دون استثناء. أعرف تاريخها، وأعرف قياداتها، وأعرف مواقفها. إلا أنني لم اشترك إلا في القليل من الاجتماعات الكاملة أو المجتزأة لهذه الأحزاب. ويهمني ان أشير إلى اثنين من هذه الاجتماعات، اللتين كان لي فيهما دور معين: الأول عقد في عام ١٩٨٠ في موسكو، والثاني عقد في براغ في عام ١٩٨١. لقد كنا في الحزب الشيوعي اللبناني في تلك المرحلة نسعى إلى إقناع الأحزاب الشيوعية العربية بالتخلي عن التقليد المتبع باصدار بيانات عن هذه الاجتماعات، التي كانت شكلية في معظمها، تراعي فيها الأحزاب ظروف بعضها، فتخرج البيانات في كثير من الحالات من دون معنى حقيقي، ومن دون جدوى، ومن دون موقف متكامل، ومن دون مهمات محددة ذات صلة بالوضع القائم في بلداننا.

ذلك ان الأوضاع كانت مختلفة جداً بين بلد وآخر. وكانت مواقف الأحزاب مختلفة ومتباينة من الأحداث ومن القضايا الحقيقية. وفي هذين الاجتماعين، بالذات، جرى الاتفاق على التخلي عن هذه البيانات. ولذلك تميز النقاش فيهما بمستوى عالٍ من المسؤولية والجدية. ومن مفارقات الزمن ان اجتماع موسكو بالذات عقد في إحدى الفيلات التي كان يقيم فيها ستالين.

وأذكر انني اصطدمت في اجتماع موسكو المشار إليه مع بعض ممثلي الأحزاب الشقيقة، عندما تحدثت عن أزمة في احزابنا، وعن أزمة في الماركسية في بلداننا. اذ اعترض هؤلاء الرفاق على الحديث عن وجود ازمة. وحين ذكرت بأن لينين، ذاته، كان تحدث عن ازمة في الماركسية في روسيا، قاطعني أحدهم بحدة، متهماً إياي بأنني تجاوزت الحد في "تزوير التاريخ"! ولم يقتنع بكل ما قدمته له من وقائع وتواريخ. الأمر الذي دفعني، بعد ذلك بثلاثة أعوام، إلى كتابة مقال حول هذا الموضوع، استشهدت فيه بمقتطفات من مقال لينين المذكور، محدداً تاريخه والمكان المنشور فيه باللغة العربية.

وأذكر، في هذا السياق، ان عدداً من بيانات الأحزاب الشيوعية العربية لم يكد يصدر حتى كانت تأتي احداث تتجاوزه وتضعه خارج التاريخ. وابرز مثل على ذلك البيان الذي صدر عن الاجتماع الذي عقد في ايار من عام ١٩٦٧ في موسكو. ففي الوقت الذي كانت جريدة "النداء" في بيروت تنشر نص هذا البيان كانت حرب حزيران تندلع، وتنتهي بهزيمة الجيوش العربية. ولم يكن في البيان اي إشارة إلى احتمالات الحرب، ولا إلى الدعوة للاعداد لهذه الاحتمالات من قبل هذه الأحزاب الطليعية! ويومها اكتفت أحزابنا، مثل سواها من القوى السياسية، بنقد ما حصل بعد ان حصل، في حين استمرت الهزائم تتوالى، واستمرت القوى الثورية تراوح مكانها، إما مقموعة مثلما كان عليه حال الأحزاب الشيوعية، أو تعيش على هامش الاحداث مكتفية بتبرير ما حصل، أو معترضة عليه من دون تفسير وتحليل الا ما ندر. ولم يجر نقد حقيقي للذات، ذات الأحزاب وذات الأنظمة وذات الأمة، الا في القليل

النادر، رغم كثرة ما صدر من كتب ومقالات باسم نقد الهزيمة، وباسم نقد الانظمة التي تحملت مسؤولية وقوعها. وتكرر الأمر ذاته، عندما أصدرت الأحزاب الشيوعية بياناً في أعقاب أحد اجتماعاتها في سنة ١٩٧٣ تتهم فيه الأنظمة العربية بالعجز عن اتخاذ قرار حاسم لتحرير الأرض المحتلة، وإزالة آثار عدوان ١٩٦٧. ولم يكد هذا البيان يصل إلى وسائل الإعلام حتى انفجرت حرب تشرين المعروفة.

وكان هذان الحدثان تعبيراً عن وجود ازمة في الحركة الشيوعية العربية، وفي داخل أحزابها، بخاصة؛ أزمة كنا في الحزب الشيوعي اللبناني اول من تصدى لتحديد طبيعتها، وللبحث في وسائل الخروج منها. وكان المؤتمر الثاني للحزب (١٩٦٨) هو أبرز تعبير عن الاجتهاد في الاتجاهين. وإذ أشير إلى هذا الخلل في عمل الأحزاب الشيوعية العربية، فليس للتقليل من الدور التاريخي لهذه الأحزاب في كل المعارك السياسية والاجتماعية والفكرية، التي خاضتها منذ مطالع الربع الثاني من القرن الماضي. فهذا الدور يسجل لهذه الأحزاب كجزء من تاريخها النضالي المجيد.

ـ لكن ذلك لم يمنع بروز ظاهرة الانشقاق داخل هذه الأحزاب، مثل الحزب الشيوعي العراقي والسوري والمصري والأردني وربما بنسبة أقل عندكم. فكيف تفسر هذه الظاهرة؟

● أفسرها بغياب الديمقراطية، وتحريم الاختلاف في الرأي، ومنع التعارض مع القائد والقيادة. فلم يكن المختلف يجد أمامه إلا الرضوخ، أو الانشقاق والانقسام. وهذه معضلة قديمة في الحركة الشيوعية، وفي الحركة الثورية، عموماً. وهي ما تزال موجودة في العديد من الاحزاب التي تفتقد إلى الديمقراطية، شيوعية كانت أم قومية أم إسلامية أم من أي نوع آخر. ويمكن القول، اضافة إلى ذلك، بأن بعض المصالح الشخصية عند بعض القيادات في هذه الأحزاب، بأنواعها المختلفة، التي تتمثل بالفردية واحتكار الحق في ابداء

الرأي والحق في اتخاذ القرار، والاستمرار في السلطة على قاعدة ذلك، تشكل مصدراً من المصادر وسبباً من الأسباب في تفاقم هذه الظاهرة. ويجب الا ننسى، في هذا السياق، دور التدخلات الخارجية، ولا سيما تلك التي كان يقوم بها الاتحاد السوفياتي والصين، قبل الصراع بينهما، وخلال الصراع، بشكل اكثر تحديداً. وهي ظاهرات تكررت، في صيغ أخرى، في البلدان العربية، من قبل دول خارجية ومن قبل سلطات داخلية.

ـ الصراع كان أيضاً موجوداً داخل الحركة الشيوعية العالمية. فما هي أبرز المحطات التي شهدتها في علاقتك مع هذه الحركة، وكانت، إلى فترة طويلة، عناوين كبيرة لهذا الصراع؟

● فيما يتعلق بالحركة الشيوعية العالمية، فقد شاركت في ثلاثة اجتماعات هامة في اطار وفد من الحزب. **الاجتماع الأول** عقد في خريف عام **١٩٦٨** في بودابست، تحضيراً للمؤتمر العالمي للأحزاب الذي عقد في صيف **١٩٦٩** في موسكو. وكان وفدنا مؤلفا من نقولا شاوي، الأمين العام، وغسان الرفاعي ويوسف خطار الحلو وجورج البطل وأنا. وكان كل من الاجتماع التحضيري للمؤتمر والمؤتمر ذاته مركزاً لنقاش وجدل شديدي التوتر والصعوبة. ويعود السبب الأول في ذلك إلى غياب الصين عنهما بفعل الخلاف الصيني السوفياتي وتأثير ذلك على اجواء الاجتماع وعلى المواقف المعلنة فيه. ويعود السبب الثاني إلى موقف الحزب الشيوعي الروماني الذي كان يتعارض مع الموقف السوفياتي، من دون ان يخرج من العائلة الشيوعية، ومن دون ان يكون متفقاً في مواقفه مع الحزب الصيني. وقد صنف السوفيات يومذاك موقف شاوشسكو وحزبه بأنه موقف قومي داخل الحركة الشيوعية. اما السبب الثالث فيعود إلى ان بعض الأحزاب الكبيرة مثل الحزب الايطالي والحزب الفرنسي والحزب الاسباني كانت لها مواقف خاصة شكلت بداية تحرر، ولو بحدود، من سطوة الموقف السوفياتي عليها. وهو ما لم يكن مقبولاً من السوفيات، الذين كانوا شديدي الارتباك في التعامل معه، ولا سيما إزاء الحزب الفرنسي الذي ظل

يحافظ على علاقة جيدة مع السوفيات، وكذلك الإيطالي، الذي لم يكن السوفيات قادرين على مخاصمته، بسبب وزنه في الحركة الشيوعية العالمية، وبسبب جرأته ومرونته، وبسبب وحدته القائمة على التنوع والتعدد. إلا أن خوفهم من تلك الظاهرة وارتباكهم في مواجهتها قادهم إلى ارتكاب أخطاء في مستوى الجريمة، حين اقدموا على شق، وحتى تدمير، بعض الأحزاب التي اختلفوا معها، ولا سيما الحزب الشيوعي الاسباني. وكان زعيم هذا الاتجاه في الحزب السوفياتي سوسلوف ومساعده بوناماريوف. وجدير بالذكر، هنا، ان الحزب الشيوعي اللبناني اتخذ موقفاً مستقلاً ازاء ظاهرة الشيوعية الأوروبية. ورفض الانصياع للضغط السوفياتي لتوقيع بيانات معادية لها. وفي هذا الاجتماع التحضيري، المشار إليه آنفاً، وقعت مشكلة في احدى الجلسات تسبب بها موقف استفزازي لرئيس الوفد الروماني موجه ضد الحزب الشيوعي السوفياتي. فأوقف رئيس الجلسة الاجتماع. وبدأت مشاورات أجراها سوسلوف، رئيس الوفد السوفياتي، مع بعض الوفود ومنها وفدنا. وفي اللقاء الذي جرى مع وفدنا قلنا لسوسلوف انه لا يجوز إيقاف الاجتماعات حتى ولو جاء موقف احد الوفود استفزازيا مثل موقف الوفد الروماني. إلا أن سوسلوف كان مضطرباً ومتخوفاً من الفشل. وكان موقفه هذا يشير إلى هشاشة الموقف السوفياتي في معالجة القضايا الشائكة في الحركة الشيوعية. كما كان يشير إلى هشاشة واضطراب هذا المنظر الكبير للشيوعية السوفياتية على إمتداد عقود من الزمن! وعند العودة إلى انعقاد الجلسات ترأس جورج مارشيه الجلسة الأولى مستخدما كل ما لديه من قوة في تنظيم النقاش. وانتهى الاجتماع بتشكيل لجنة تحضيرية كان جورج البطل ممثل حزبنا فيها.

الاجتماع الثاني هو المؤتمر العالمي للاحزاب الشيوعية الذي عقد في موسكو في تموز **١٩٦٩**، وشاركت فيه اكثرية الاحزاب الشيوعية، وغاب عنه الحزب الشيوعي الصيني والاحزاب التي كانت موالية له. وكان الحزب الشيوعي اللبناني برئاسة نقولا شاوي الامين العام. وكان يضم غسان الرفاعي وجورج البطل وأنا. وارتدى هذا المؤتمر اهمية خاصة بما اتخذه من قرارات

جديدة من نوعها، تميزت بالمرونة والانفتاح، بما في ذلك في العلاقة مع الصين. ومن بين هذه القرارات الهامة القرار الخاص بعقد مؤتمر عالمي للقوى المعادية للامبريالية برئاسة جمال عبد الناصر. و كان من المفترض ان يعقد هذا المؤتمر في القاهرة في العام التالي. إلا أن وفاة عبد الناصر، التي حصلت خلال انعقاد الاجتماع التحضيري لهذا المؤتمر، أدت إلى الغاء المؤتمر من الأساس، لأنه كان مصاغاً على قياس هذا الزعيم الكبير. وأذكر انني قمت مع فاروق معصراني، قبل انعقاد المؤتمر، بجولة في عدد من البلدان العربية شملت سوريا والعراق ومصر، بهدف استطلاع مواقف وآراء القيادات السياسية في السلطة وخارجها في هذه البلدان لنزود بها وفدنا إلى هذا المؤتمر العالمي للاحزاب الشيوعية. وكانت الجولة مهمة جداً. ففي سوريا التقينا الرئيس نور الدين الأتاسي وصلاح جديد ويوسف زعين. والتقينا في العراق ميشال عفلق وعدداً من قيادات حزب البعث ووزراء وشخصيات سياسية، إلى جانب قيادة الحزب الشيوعي. والتقينا في القاهرة الأمين الاول للاتحاد الاشتراكي عبد المحسن ابو النور وعدداً من قيادات هذا الحزب وعدداً من الوزراء والممثل الشخصي للرئيس عبد الناصر حسن صبري الخولي، وبعض الشخصيات الاخرى من الشيوعيين والماركسيين وفي مقدمتهم خالد محيي الدين. الا ان رغبتنا في ايصال حصيلة هذه اللقاءات إلى قيادة الحزب السوفياتي لم تلق اهتماما. فاكتفينا باطلاع من أمكننا اللقاء به من الأحزاب الأخرى.

أما **الاجتماع الثالث** الذي حضرته فقد عقد في براغ في عام **١٩٨٨**، في إطار مجلة "قضايا السلم والاشتراكية" للبحث في تطويرها وفي دور الأحزاب الشيوعية في هذا التطوير. وكان هذا الاجتماع هو الاجتماع الأخير للاحزاب الشيوعية، لأن تداعيات الأحداث في البلدان الاشتراكية وفي الاتحاد السوفياتي كانت قد أدت إلى ضرب كل الايجابيات التي خرج بها هذا الاجتماع، في اتجاه تجديد وتطوير مفهوم المجلة لتصبح منبراً عاماً مفتوحاً لكل الحركة الاشتراكية واليسارية من دون تحديد، ولتصبح، عندئذ، إطاراً ديمقراطياً حقيقياً تتنافس فيه الأفكار والتيارات في تقديم الاجتهادات في كل ما يتصل بالعالم

المعاصر من قضايا واحداث واتجاهات للتطور. وخلافاً لما تم التوافق عليه في الاجتماع المذكور، توقفت المجلة عن الصدور، في الوقت الذي كانت قد بدأت تدخل في مهمتها الجديدة. وانتهت الاجتماعات المشتركة للأحزاب الشيوعية بعد هذا الاجتماع. وكان من نصيبي أنا ورفيقي ألبير فرحات ورفيق سمهون ان نشهد آخر سكرات الموت في النظام الاشتراكي، الذي كان يحتضر، في صيغة الحركة الشيوعية العالمية، كما كان قد حددها الحزب السوفياتي، صاحب التجربة الاشتراكية الأولى في التاريخ التي انهارت. وهي تجربة، برغم انهيارها، لا يمكن التقليل من الدور الكبير الذي لعبته، والتأثير الكبير الذي مارسته، ومعها مجمل الحركة الشيوعية العالمية، في الوضع العالمي برمته، وطبعتا القرن الماضي بطابعهما. وتلك حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكرها.

لقد أشرت إلى هذه الاجتماعات ولم أشمل معها المؤتمر الذي عقد في الذكرى السبعين لثورة اوكتوبر بدعوة من غورباتشوف، الذي شاركت فيه إلى جانب الأحزاب الشيوعية جميع الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية والأحزاب الوطنية والديمقراطية في بلدان عديدة من آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية. وهو المؤتمر الذي كان يمكن ان يشكل تحولاً تاريخياً نوعياً في حركة التقدم المرتبطة بالاشتراكية لو لم يحصل ذلك الانهيار المتسارع للاتحاد السوفياتي.

ـ لماذا لا تريد أن تشمل بحديثك هذا المؤتمر؟

● كنت أريد إرجاء هذا الحديث إلى مرحلة لاحقة في حوارنا. ولكنك ما دمت تسأل عن هذا الاجتماع فإليك بعض التفاصيل، التي قد تبدو مهمة، حتى ولو ان هذا الاجتماع لم يستكمل النتائج المهمة التي ارتبطت به، بسبب الانهيار المتسارع للاتحاد السوفياتي. والمعروف أن غورباتشوف كان دعا، بمناسبة الذكرى السبعين لانتصار ثورة أوكتوبر (١٩٨٧)، إلى مؤتمر عالمي لقوى الاشتراكية والتحرر والتقدم في العالم، حضره القادة الأول في مئتي حزب شيوعي واشتراكي والقادة الأول لأحزاب وطنية وديمقراطية في مختلف بلدان

العالم. وكان هذا المؤتمر هو الأول من نوعه في تاريخ الحركة الثورية العالمية. ولذلك فقد كان حدثاً تاريخياً بكل معنى الكلمة. وشارك فيه من لبنان الحزب الشيوعي ممثلاً بجورج حاوي وانا. في حين تمثل الحزب التقدمي الاشتراكي بوليد جنبلاط وبزوجته نورا. ولكن هذا المؤتمر الحدث ضاع في خضم الصراع داخل الحزب والدولة والمجتمع، وضاعت الآثار العظيمة لحصوله. كذلك ضاع الاثر الكبير لكتاب غورباتشوف المليء بالوعود، والذي كان يحمل اسم "البريسترويكا". ولعل أهم ما نتج عن هذا المؤتمر هو المصالحة بين الحركة الشيوعية العالمية وبين الأممية الاشتراكية الديمقراطية. وكان من نتائجه، أيضاً، أن جميع هذه الأحزاب اتفقت على مواجهة تحديات العصر القادم في شكل مشترك، وفي أطر متعددة، مع احتفاظ كل تيار بخصوصياته وتمايزاته، وبصيغه التنظيمية.

ويهمني، هنا، أن أشير إلى اجتماعين حصلا خلال الاحتفال بالذكرى السبعين لثورة اكتوبر. **الإجتماع الأول** جرى في شقتي مع ياسر عرفات بمبادرة منا، جورج حاوي وانا. وكان اول لقاء يحصل بيننا بعد احداث طرابلس في عام **١٩٨٣**. كان اللقاء وديا وصريحا. ولم نجر حسابا عن الماضي. لكننا طرحنا على عرفات اسئلة تتعلق بالمستقبل. اهمها كيفية التعامل مع القوى العربية بواقعية، ولكن بأكثر ما يمكن من الالتزام بالحد الادنى من المبادئ، لكي يكون التضامن مع الشعب الفلسطيني حقيقيا لا ديماغوجيا. وأشرنا، في هذا الإطار، إلى ما كان قد اشيع واذيع عن تعاون بين القيادة العراقية والقوات اللبنانية، بواسطته. وقلنا له ان مثل هذه المواقف يسيء إلى القضية الفلسطينية، فضلاً عن انه يشكل تنكرا للشعب اللبناني الذي قدم للقضية الفلسطينية ما يفوق قدراته. وكانت حصيلة الاجتماع إيجابية. وتم الاتفاق في نهايته على متابعة الاتصالات. **الاجتماع الثاني** هو الذي عقد في مقر اقامة علي سالم البيض، الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني آنذاك. وحضرته قيادات الاحزاب الشيوعية العربية، ومثلت فيه الحزب الشيوعي اللبناني، لتعذر حضور جورج حاوي. وطرحت في الاجتماع فكرة ارسال برقية تحية إلى القيادة السوفياتية

باسم المجتمعين من دون ذكر اسماء الاحزاب تجنباً لذكر اسم الحزب الاشتراكي اليمني وأحزاب أخرى، لأسباب تعود إلى هذه الأحزاب. عارضت الفكرة بشدة، لأنني لم أر فائدة من ارسال مثل هذه التحية باسم المجتمعين، بعد ان كان كل حزب من أحزابنا قد أرسل التحية باسم حزبه. وكان جوهر اعتراضي ينطلق من تقدير عندي بعدم جدوى وعدم اهمية مثل هذه التحية من قبل الشيوعيين، في ظل هذا الحشد من القوى التي جاءت من كل أنحاء العالم العربي والعالم لتشارك الحزب الشيوعي السوفياتي احتفالاته بذكرى ثورة اكتوبر. وكنت الوحيد المعارض لارسال البرقية. وهددت، في حال إرسالها، أن نعلن باسم حزبنا أننا لم نشارك في توقيعها. ولم ترسل البرقية، بسبب موقفي الحاسم هذا. وكان موقفي منسجماً مع مواقف سابقة اتخذها الحزب في موضوع التوقيع على بيانات مشتركة، لا تذكر فيها اسماء الاحزاب المشاركة، ثم لاننا كنا نعتقد ان جمع هذه الاحزاب في مناسبات اممية لا جدوى منه ما دمنا غير قادرين على اتخاذ مواقف مشتركة بين احزابنا في قضايا تهم بلداننا.

وأود، هنا، أن اشير إلى أن وجودي في موسكو ما بين صيف ١٩٨٧ وصيف ١٩٨٨، ضيفاً على اللجنة المركزية، لقضاء فترة راحة وقراءة، سمح لي بمعرفة الكثير عما كان يجري في الاتحاد السوفياتي حديثاً، والكثير مما كنت اجهله من تاريخ هذا البلد الكبير، قبل ثورة اوكتوبر وخلالها وفي الأزمنة والعهود التي تلت انتصارها. وقد اقمت خلال تلك الفترة علاقات واسعة مع قياديين في الحزب السوفياتي ومثقفين سوفيات وعرب من الاتجاهين المجدد والمحافظ، ومع عدد من قيادات الأحزاب الشيوعية وغير الشيوعية. وهي اللقاءات التي كانت تزودني بكثير من المعارف، وتغني علاقاتي بكثير من الصداقات، وتمنحني القدرة على التفكير بأفق جديد لمرحلة ما بعد البريسترويكا، في بلادي خصوصاً وفي العالم.